الأقلام

٢

WWW.ATTAWEEL.COM

تصدر عن
الشؤون الثقافية العامة
- وزارة الثقافة والاعلام
الجمهورية العراقية

السابع عشر
العدد الثاني
ـ ١٩٨٨ م

أسرار البحر

رسالتان لأحمد بن برد الأصغر

بقلم : فرناندو دي لاجرانخا
ترجمة : عبداللطيف عبدالحليم
مدريد.

أحمد بن برد الأصغر هو أحد الشعراء الذين حظوا بصيت كبير بين جماعة الشعراء الاندلسيين، اعطاه مكانته اللائقة به ثلاثة من مشاهير مصنفي المختارات في الاندلس : ابن بسام[1]، وابن خاقان[2]، وابن سعيد[3] . يتناثر شعره أيضا ليس في التراجم التي تتحدث عنه فحسب بل في الكتب ذات الطابع التاريخي، وقد ابرز علماء الغرب مكانة ابن برد وقيمته كذلك .

كان ابن برد الأصغر كاتبا متميزا في النثر، وقد تعاطى السجع الذي وافق هوى النقاد الأندلسيين الذين قرظوا رسالته في السيف والقلم .

أركز في هذه الصفحات فحسب على نثره الذي اخترته، وترجمت منه رسالتيه : (رسالة السيف والقلم) وأخرى بعنوان (رسالة في النخلة) .

اسرة بني برد .

ينتمي أحمد بن برد ـ كما يخبرنا كل الذين تحدثوا عنه ـ الى أسرة ذات شان في قرطبة، سواء في مجال الكتابة أو السياسة؛ وهذا صحيح، اذا تذكرنا جده احمد بن برد الأكبر شخصية تبرز في الصدارة في لحظات متعددة وحاسمة في تاريخ الخلافة من بداية العامريين، شخصية تؤثر في سير الأحداث من وراء حجاب، وفيما يختص بانه كان يستطيع الاحتفاظ بمنصبه الرسمي كاتبا للرسائل (او امين الدولة كما يسميه دوزي) خلال سنوات طويلة تميزت بالاضطرابات المثيرة في نهاية الخلافة التي تغير فيها شخص الخليفة اكثر من مرة يكشف لنا هذا بوضوح الى اي حد كانت مهارته ونفوذه في مكان عظيم، وقد شارك بشكل بارز في لحظات جد حرجة، كلفت آخرين حياتهم بسبب اشتراكهم فيها .

أخذ أحمد بن برد الاصغر من جده، اسمه وكنيته ابا حفص، ولهذا السبب خلط بينهما مرارا ليس الدارسون العرب وحدهم، بل بعض الدارسين الاوربيين كذلك .

أما اللقب الذي يميز بينهما : الاكبر او الوزير للجد، والأصغر أو الكاتب للحفيد، فانه لايظهر بصفة دائمة في المصادر القديمة عند الحديث عن احدهما .

ماصنف أحد ترجمة كاملة عن الجد او الحفيد، ولا أحد فيما اعلم درس اعمالهما خاصة، والاخبار التي نقلها

WWW.ATTAWEEL.COM

الينا مترجموهما هي فقط موجز مقتضب لحياتهما، أو على الأكثر مديح معهود، مبالغ فيه .

اما شخصية الجد البالغة الاهمية فانني أحيل القارىء على مقال سانشره قريبا حين انتهي من دراسة اعماله، يكفينا أن نقول انه برز شخصية نابهة في عهد المنصور، وان لم يكن ثابتا انه شغل آنذاك مناصب سياسية، وظهر كاتبا للرسائل منذ عهد عبدالملك المظفر بن ابي عامر ولد المنصور وخليفته، وتأخذ مكانته في البروز مع الحكام المتعاقبين حتى زمن الخليفة المستظهر بالله، ليموت بعد اربع سنوات بعد بيعة هذا عام ٤١٨ هـ = ١٠٢٧م[1] في سرقسطة بعد ان نيف على الثمانين حسب ماحدده ابن بسام[2] .

أما ابنه محمد بن أحمد بن برد ويكنى أبا العباس، فانه لم ينل في الاغلب حتى من بعيد ـ لابمهنته السياسية، ولابمواهبه الادبية الشهرة التي حظي بها الجد الحفيد . ونصادف الترجمة الموجزة الوحيدة عنه في التكملة[3]، وأكثر الأخبار اهمية ـ الموجود فيها ـ هو قرابته بالكاتبين اللذين يشير الى مكانتهما ابن الابار في عالم السياسة، والادب . ولم يحدثنا عنه هو : كان شاعرا او اديبا، وهل اشترك في مجال السياسة . حتى لم يذكر لاسنة مولده ولا وفاته؛ الا انه ظل على قيد الحياة بعد وفاة ولده سنة ٤٤٥هـ = ١٠٥٣ ـ ١٠٥٤م .

في البيان لابن عذارى خبر واحد يبدو أنه يشير اليه ـ ويجب تصحيحه ـ يحدثنا عند الكلام عن يحيى بن علي بن حمود أن كاتبه كان أبا العباس أحمد بن برد، وأنه عيّن الكاتب محمد بن الفرضي وزيرا[4] من المحتمل أنه حدث لبس في الكنية، وأن الأمر يتعلق بأبي حفص الأكبر، لأن اسم ابنه ـ كما رأينا ـ هو محمد وليس احمد، ونعلم من مصدر آخر أن ابن برد الأكبر كان كاتبا للحموديين، ووصلت إلينا كذلك رسالة كتبها هو لعلي بن حمود[5] .

فيما يتعلق بابن برد الأصغر لاندري في أي تاريخ ولد، ولا أين، ربما كان في قرطبة حيث كانت تعيش أسرته، وفي نهايات القرن العاشر حسب ماقال هو نفسه في خبر سوف نراه فيما بعد .

أحمد بن برد الأصغر

لاندري شيئا عن سنواته الاولى التي امضاها في قرطبة، لكننا وقفنا على صداقته بأبي عامر بن شهيد وأسرته، الذين كانت تربطهم علائق ذمة ببني برد عبر أخبار عديدة : أحد هذه الاخبار عند موت صديق لكليهما هو محمد بن ربيب، وقد كتب ابن برد شعرا يتحدث فيه عن مرضه الأخير بناء على سؤال ابن شهيد ذلك[6]، وخبر آخر رواه ابن شهيد نفسه، يدرجه بين أصدقائه، بصدد رغبة أبي جعفر ابن عباس (وزير زهير المعروف) الذي كان يريد أن يلتقي بابن شهيد[7] وعندما مات ابن شهيد في (أول جمعة من جمادى الاولى سنة ٤٢٦ = ١٤ من مارس سنة ١٠٣٥) كان ابن برد أحد الشعراء الذي رثوا ذا الكاتب الكبير[8] .

وفي عام ٤٢٧هـ = ١٠٣٥م حرر أبو حفص احمد ابن برد وثيقة مبايعة الخليفة المزيف (بائع الحصر في قلعة رباح)، بل انه كتب أيضا من تلقاء نفسه دعوة للاحتفال بعودة الخلافة، وفي هذا الخبر الذي رواه ابن عذارى[9] يلقبه بالوزير الكاتب، وقد رأينا أن لقب الكاتب هو الذي يلقب به ابن برد ليفرق بينه وبين الجد الوزير، وواضح أن هذا الخبر لايمكن أن يتعلق بالجد الذي مات من ثماني سنوات .

ينبغي أن نصحح قبل أن نمضي قدما الخطأ الذي اقترفه نيكل NYKL الذي جعل من الجد والحفيد شخصا واحدا، ويتحدث عن مكانته العظمى لدى العامريين عازيا اليه رسالة السيف والقلم[10]، ويعزو بيريس PERES * بدوره الى الحفيد تحرير بيعة شنجول وليا لعهد الخليفة هشام الثاني[11]، كما ينسب اليه كذلك رسالتين محررتين باسم سليمان المستعين، على حين أن كاتبهما هو الجد، بل أن كلتا الرسالتين موجودتان في الذخيرة بالفصل المعقود عنه[12] .

اما اهم الاخبار التي لدينا عن ابن الاصغر، فانها وصلتنا عن لسانه هو، وقفنا على نشأته الادبية في كنف جده، وقد كتب ذلك مزهوا ـ في مقدمة كتابه سر الادب وسبك الذهب، وهو لون من التراجم الذاتية حفظ لنا ابن

بسام جزءا منه، ولاهمية هذه المقدمة في الوقوف على افكار الكاتب الادبية، ولانها تعكس على نحو ما ـ تكوينه النفسي، فقد ترجمتها، ونشرتها ملحقا لهذا الفصل .

نعلم ان ابا حفص الاكبر توفي في سرقسطة، لعله كان ينقب عن ملاذ يتوقى فيه معاكسات الحظ، وليس من المعقول أن نعتقد انه ترك قرطبة باختياره، وقد شهدت كل حياته، وكل امجاده ـ بأخرة من عمره ـ ويبدو ان حفيده يوحي لنا بذلك أيضا في مقطع طويل، يشكو فيه حظه الاعمى، حيث ان هوىّ الكاتب والسياسي في المصائب قد لحق بكل افراد الاسرة فيما بعد .

واضح ان هذه السطور لايمكن ان تكون محررة قبل سنة ١٠٤١م التي استقل فيها ابو الاحوص معن بالمرية، والذي رفع اليه كتابه، فماذا عن ابن برد منذ وفاة جده ٤١٨هـ = ١٠٢٧م حتى ذلك الحين ؟

نعثر في المغرب على الخبر . فانه ترك قرطبة الى المرية، وعينه المعتصم وزيرا، بعد ذلك ذهب الى دانية، الى بلاط مجاهد[١١]، ومع هذا يجب ان نأخذ هذا الخبر بكثير من التحفظ، فان المعتصم الذي خلف اباه في سنة ١٠٥١م لم يبدأ يحكم بنفسه حتى موت عمه صمادح اي في سنة ١٠٥٤م[١٢]، وهو تاريخ تقريبي، وربما كان بعد موت ابن برد نفسه في سنة (٤٤٥هـ = ١٠٥٣ ـ ١٠٥٤م)[١٣] فضلاً عن ان مجاهدا امير دانية توفي في سنة ١٠٤٤م وعلى هذا لابد من تصحيح الخبر الذي جاء في المغرب، فانه من المؤكد انه عاش في بلاط واحد منهما، لان رسالة السيف والقلم رفعها الى مجاهد، ورفع (سر الأدب) الى معن بن صمادح كما ثبت في المؤلفين كليهما، بيد انه من الحتم ـ كما يقتضي التسلسل التاريخي ـ انه كان في دانية اولا .

لاندرى في اي سنة هجر قرطبة، ربما كان في التاريخ نفسه الذي هجرها فيه جده، أي عندما كان صاحبنا حدثا في ذلك الحين، ومن المحتمل ان يكون بعد ذلك بقليل حين ذهب الى بلاط دانية في حكم مجاهد سنة ١٠٠٩ ـ ١٠٤٤م ثم عاد بعد ذلك الى قرطبة، وقد حفظ لنا ابو الوليد الحميري جزءا من رسالة لابن برد عند قفوله من دانية، قاصدا الوزير والكاتب أبا اسحق بن حمان الذي خرج معه الى ارباض قرطبة متنزها[١٤] لاندري في اي تاريخ، وقد رأينا أنه في العام التالي ٤٢٧هـ حرر وثيقة البيعة لهشام الثاني المزيف .

نجهل المدة التي مكثها في قرطبة، ربما عاصر بني جهور، أو كان أيضا في خدمتهم، بعد أن تمزقت آماله في عودة الخلافة الى استقرارها، وقد كان هو من المؤكد شديد التحمس لها، ومهما يكن من امر وان كنا لاندري متى ـ فقد وجه الى أبي الوليد محمد بن جهور (ربما قبل أن تصل الى الحكم سنة ١٠٤٣م) رسالته الشهيرة مدافعا فيها عن تفضيل الورد ضد ابن الرومي، حفظها لنا الحميري وهو بدوره مناصر لابن الرومي، وقد كتب ردا يفضل فيه النرجس[١٥] .

وفي لحظة معينة بعد سنة ١٠٤١م يعلن معن بن صمادح ـ على أية حال ـ استقلاله، فيتوجه الشاعر الى ألمرية، وتبقى الفقر المريرة في مقدمته لسر الأدب لغزا مبهما الى حد بعيد . هل كان الكاتب يتحدث عن موقفه عامة تجاه ذكريات ماضي أسرته المجيد في قرطبة الخلافة، أم كان يقصد اللحظة التي كان يكتب فيها، اللهم ان لم يتعد ذلك أن يكون فكرة مطروقة تستهدف ابراز تعارض خذلانه، ونقص ولع الجميع بالأدب، ازاء كرم معن وحبه الشديد للأدب . ولعله قد أمضى ـ في الواقع ـ فترة ما صعبة حتى حظي برعاية الملك ابي الأحوص معن، ونعلم ان ابا ابن برد عاش في ألمرية، الم يكن هو ـ في نهاية الامر ـ هو الذي استدعاه ليقيم الى جانبه؟

ازاء فقر المراجع الشديد، فنحن ندور في ارض الافتراضات المحضة لدينا آخر انباء عن كاتبنا رواها الحميدي الذي رآه في ألمرية بعد سنة ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ ـ ١٠٤٩م عند مروره بهذه المدينة في زيارته لأبي محمد علي بن احمد مؤلف طوق الحمامة[١٦]، وروى أن ابن برد توفي في المرية سنة ٤٤٥ هـ = ١٠٥٣ ـ ١٠٥٤م في حياة والده، وعلى هذا لابد أن يكون قد مات قبل اتمام العقد الخامس من عمره، لانه هو نفسه قال : انه كان في سن الصبا الأول حين مات جده سنة ٤١٨ هـ = ١٠٢٧م .

شعر ابن برد الاصغر

لم تبق لنا نماذج كثيرة من شعر ابن برد، ولاتتفق والشهرة التي حظى بها شاعرا، والمقطوعات التي اوردها ابن بسام في مؤلفه الضخم[22] نقل بعضها عنه غيره في منتخباتهم الادبية، فمؤلف الذخيرة لكي يبرز تضلعه هو يروق له أن يشهر بسرقات ابن برد، وسلخه لاشعار غيره من شعراء الاندلس : ابي العباس احمد بن القاسم[23]، وابن هاني[24] وكذلك من المشارقة : ابي نواس[25]، وابن الرومي [26]، وابن المعتز[27] والمتنبي[28]، والمعري[29].

أما ابن خاقان، فقد قرظ مكانته الشعرية، مستشهدا ببعض النماذج يقول عن شعره : «وشعره مثقف المباني، مرهف كالحسام اليماني»[30]

. . . . . .

ليس بوسعنا الوقوف على المادة التي كانت لدى ابن خاقان حين الف كتابه «مطمح الانفس» وهو تكملة ـ كما هو معروف جيدا ـ لقلائد العقيان، لكن فيما يمس ابن برد، فانه لايكاد يستخدم مصدرا آخر غير جذوة المقتبس للحميدي، لان الفقر الاربع القصيرة التي يحتويها موجودة في الذخيرة، اختار منها الحميدي ثلاثا، ونسخها عنه الضبي[31] اما الفقرة الرابعة فهي مأخوذة من الذخيرة، نقلها حرفيا حتى مع كلمات ابن بسام في التقديم، وقد اخذ المقرى في نفح الطيب الفصل الخاص بابن برد بتمامه عن ابن خاقان[32] .

أما الشعر الذي اختاره ابن سعيد في المغرب[33] من بيتين او ثلاثة فهو مأخوذ كله ـ وباختصار دائما ـ من الذخيرة [34]، وثلاث فقرات موجودة في المغرب نقلها ابن سعيد في كتابه الآخر «كتاب رايات المبرزين»[35] احدى هذه الفقر اختارها المؤلف نفسه ـ في النهاية ـ لكتابه الآخر «عنوان المرقصات والمطربات»[36]، ونقل الشقندي ايضا في السياق مقطوعة من بيتين في مؤلفه «رسالة في فضل الاندلس»[37] .

نثر ابن برد الاصغر

اذا كان ابن برد شاعرا، فليس مكانته ناثرا لدى نقاد الادب الاندلسيين باقل، يراه الحجاري ناثرا افضل من جده ابن برد الاكبر[38]، وقد استحق شعره ونثره التقريظ الحار الذي نعته به ابن بسام في كلمات دقيقة موجزة[39] .

يزهو ابن برد ذاته بمكانته كاتبا عربيا مجيدا، يقدر ماله من نتاج أدبي تقديرا كبيرا سواء في حقل الشعر أو النثر، ولايتحفظ في بسط المسالة[40] وحسب ماصرح به فقد كتب السلطانيات والاخوانيات، فكتابه «سر الادب وسبك الذهب» يعتبر حسب مابقي منه ـ منتخبات من نثره : فصول متنوعة شديدة القصر في التصميدات تشي بموضوع الكتابات، وتتصدر موضوعاته سياسية واخوانية .

وله كتابات اخرى وقفنا عليها، وهي ذات طابع ادبي محض، فرسالته التي نشرها الاستاذ بيريس PERES وحللها وجدت صدى لدى ابي الوليد الحميري الذي عارضها برسالة أخرى، وادرج الرسالتين في مختاراته البديعة عن الربيع والازهار[41]، وفي هذه المختارات مقطوعة اخرى لابن برد اشرت اليها آنفا [42] فيها وصف جيد لنهر قرطبة وأرباضها جعلت الحميري يعلق عليها بأنها قطعة نثر مقطعة من السحر .

حاشا هاتين الرسالتين، فقد وصل الينا ـ للحظ الحسن ـ ثلاث أخر أولاها بعنوان الرسالة البديعة في تفضيل اهب الشاء على مايفترش من الوطاء . أما الاخريان فسوف أترجمها مدروستين، والحقهما بهذا الفصل، أولاهما بعنوان، «رسالة السيف والقلم» والاخرى موجهة الى صديق له، ولم يصل الينا عنوان لها .

استرعى نظر النقاد الاندلسيين فحسب رسالته عن السيف والقلم من بين ثلاث الرسائل التي كانت غير منشورة حتى عهد غير بعيد، وليس في ذخيرة ابن بسام بالذات، أي منها، لكن احد النساخ الاذكياء ـ وشكره واجب ـ ضمها الى الذخيرة[43]، عازيا اهمال ابن بسام لها الى سرعته حين صنف كتابه، وهذه الرسائل موجودة فقط ـ في مخطوطتين من المخطوطات التي رجع اليها محقق الذخيرة، لكنهم جعلوها ملحقة بالمجلد الثاني من القسم الاول .[44]

يروي ياقوت[45] وهو الخبر الوحيد الذي لدينا عن هذه

النقطة أن ابن برد الف ايضا تفسيرا للقرآن الكريم، ويذكر كتابين له : كتاب التحصيل في تفسير القرآن، وكتاب التفصيل في تفسير القرآن، بيد انهما فيما يبدو عنوانان لكتاب واحد، نظرا لتشابه العنوانين اللذين وردا عن مصادر مختلفة، وهذا يفسر اختلاف الروايات . وغريب - مع ذلك - ان الكتاب الأندلسيين، وبخاصة اصحاب التراجم - الذين قد اهتموا بلا ريب - بهذا الموضوع صمتوا عن ذكر هذا الكتاب، وعن جهد ابن برد مفسرا للقرآن[١٦] .

رسالة السيف والقلم

حسب مايرويه ابن خاقان[١٧] فان ابن برد برسالته هذه كان اول من اوضح الفرق بين السيف والقلم، وردد المقرى عبارته[١٨] مستشهدا في اسهاب بابن خاقان، وكررها نيكل عن المقرى[١٩]، لكن الاصابة الفاصلة في ذلك أن العبارة للحميدي - وقد رأينا الى اي حد أخذ عنه ابن خاقان في ترجمته لابن برد - وقد رددها الضبي[٢٠] . بيد ان الحميدي - مع ذلك - كان اكثر احتراسا في حكمه حيث أشار فقط الى ان المجادلة بين السيف والقلم في هذه الرسالة لاحراز الاولوية فحسب كان ابن برد فيها متقدما على كل ادباء الاندلس (وهو اول من سبق الى القول في ذلك بالاندلس)[٢١] .

هل عولج هذا الموضوع قبل ذلك في المشرق؟ اشار صديقي العزيز المصري الدكتور محمود على مكي - الذي تفضل بقراءة ترجمتي لهذه الرسالة، واوضح لي بعض ماغمض منها - الى ان هذه الرسالة من المحتمل ان تكون قد استلهمت الابيات الاولى من قصيدة أبي تمام (بحر البسيط)* التي يمدح فيها الخليفة المعتصم بالله بمناسبة فتحه عمورية، ومستهلها :

السيف أصدق انباء من الكتبِ في حده الحد بين الجد واللعب[٢٢]

ومع ذلك فقد كرر أبو تمام الفكرة في البيت الثاني لكي يصل في البيت الثالث الى تفضيل السيف، وهذا الاستهلال مستوحى فقط من الوقعة الحربية التي يتغنى بها قبل الولوج الى موضوعه الرئيس .

ترددفيما بعد فكرة تفضيل السيف على القلم - دون أن يكون لها نتائج ذات شأن - لدى الشاعر العظيم المتنبي فيما يقوله في ترجمة غرثيه غومث له :

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي المجد للسيف ليس المجد للقلم[٢٣]

وكما نرى فان ابيات هذين الشاعرين وشعراء آخرين في الشعر الاندلسي[٢٤] تأتي عرضا، دون أن تبلغ الى ان تشكل موضوعا رئيسيا والشاعر نفسه هو الذي يتحدث، متخذا موقفا محددا حين يبدأ نظمه .

أما رسالة ابن برد فانها تشكل - على العكس - وحدة مرسومة بدقة : مقدمة تسوغ المجادلة القائمة بين القلم والسيف، عن فضائل كل منهما، والحوار المتميز بعدم الاعتدال بين هاتين الآلتين في مجال الأدب والحرب، يئولان في النهاية الى المصالحة، كي يصل الى مدح مجاهد الذي كان ذريعة انشئت من أجله الرسالة[٢٥] .

تنضوي رسالة السيف والقلم تحت ضرب من الأدب العربي معروف جيدا باسم المفاخرة، كتبت على طريقة الحوار، وتشبه أدب المجادلة في اوربا في العصر الوسيط . ومحاولة اعطاء هذه الرسالة - فضلا عن صعوبة هذا النثر المسجوع - صيغة اسبانية كان عذابا شديدا . والرسالة كلها وبخاصة مقدمتها عبارة عن سيل عارم من المجازات المتقابلة، ومترادفات متوالية في استعارات من الصعوبة بمكان أن تترجم الى لغة أخرى، يكثر فيها كما هو طبيعي - الافكار المطروقة - مستعارة - من تلك الافكار المستعملة في الشعر، وفيها وصف الشعر مرات متعددة السيف والقلم وللأسف فان موضوعا له مثل هذه الامكانيات الكثيرة ظل تقريبا موضوعاً بيانيا محضا، ونفتقر في الرسالة هنا لتأملات سرفنتس الرائعة في دون كيخوتي الجزء الأول الفصل ٣٧ - بل في اطار موقف من الحياة نفتقد كل عظمة الكتاب الاسبان الذين عالجوا الموضوع[٢٦] .

ولكون مجاهد الذي رفعت اليه الرسالة عاهلا كان شغفه بالحرب واضحا عبرملكه الطويل فان ابن برد - رغما عنه - جعل الميزان بالقسط، فتعليلاته الحارة المليئة بالحدة موزعة

بالعدل بين بطلي المجادلة اللذين خلع عليهما الصفات الانسانية، وتنتهي بالسلام، مؤكدة أن شرط التفضيل بينهما يرتكز في أن الاثنين مفضلان لدى مجاهد، لكن ابن برد ـ أديبا بميوله، ومن سلالة أدباء ـ وجد من الحتم أن يميل لتفضيل القلم، وهكذا نرى أن شعوره بالندم جعله يكتب ـ في نهاية الأمر ـ لكي يبرىء ذمته ـ مدحا للقلم، طغى فيه الحب كل الحب لصديق صناعته، الذي لايفترق عنه، ويكسر الوضع القائم الذي ترك فيه القلم والسيف وعاد ـ الآن ـ لايسمح للسيف أن يرفع عقيرته منافحا عن نفسه، وآض حانقا عليه، فلم يخصص له حتى كلمة ود، رغم انه نعته قبل ذلك بنعوت مدح كثيرة، وبعبارات تمجيد هائلة .

هذا التغني بالقلم موجود في الذخيرة[٣٠]، ضمه ابن سعيد بايجاز ـ في المغرب [٣١]، ويؤكد ابن سعيد ـ بالمناسبة ـ أن الكتاب ـ الذي يشكل جزءا منه ـ لابد أنه يقصد سر الأدب ـ رفعه الى المعتصم (وليس لمعن)[٣٢] وليس ثمة شيء أرق موقعا ـ ولعله غير صحيح ـ في نفس أي ملك من ذلك الدفاع عن القلم، (خادم الفكر) كما يلقبه ابن برد مثلما هو في نفس المعتصم، ملك مسالم، محب للآداب، حام لها، الى أي مدى حددت كلمات ابن برد ـ ابن برد ذاته الذي كان بجانب الأمير الفتى وأثر فيه ـ سلوك هذا الملك العالم المتواضع في اسبانيا الاسلامية؟

فقر في وصف القلم والمداد والكتاب

الكتاب من حلية الملائكة . قال الله تعالى : (كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون)[٣٣] المداد كالبحر، والقلم كالغواص، واللفظ كالجوهر، والقرطاس كالسلك الدواة كالقلب، والقلم كالخاطر، والصحيفة كاللسان . العقل أب، والعلم أم، والفكر ابن، والقلم خادم، ماأعجب شأن القلم، يشرب ظلمة ويلفظ نورا، قد يكون قلم الكاتب امضى من سنان المحارب، القلم سهم تنفذ به المقاتل، وشفرة تطبق بها المفاصل . اذا اخذ الكتاب شكتهم للكلام، واخترطوا ظبات الاقلام فكم من عرش يثل، ودم يطل، وجبار يذل، وجيش يفل، ولولا القلم ماعبئت كتائب، ولاسريت مقانب، ولاانتضيت سيوف، ولاازدلفت صفوف . على غيث القلم يتفتح زهر الكلم، ماأصوغ القلم لحلي الحكم! قاتل الله القلم، كيف يفل السنان وهو يكسر بالأسنان! فساد القلم خدر في اعضاء الخط (قال ابن بسام : وهذا محلول من قول القائل حيث يقول :

من خط يوما ببرية فسدت أصاب اعضاء خطه حذر

رداءة الخط قذى في عين القارىء[٣٤]

ماكتب على غرار رسالة السيف والقلم

لم يشر أحد من أدباء الأندلس الذين تناولوا هذه الرسالة اية اشارة الى الرسائل التي من المحتمل ان تكون قد احتذت تلك الرسالة، مامدى الشهرة التي بلغتها رسالة ابن برد؟

لايبدو انه حفظت منها نسخ كثيرة حاشا نسخة الذخيرة، وقد قلنا آنفا انها لم تكن موجودة فيما حرره ابن بسام، ربما تكون موجودة في مخطوطة اخرى في اسطمبول[٣٥]، لكني اعتقد ـ في وضوح ـ أنها حظيت بشهرة داخل الادب العربي، وربما خارجه .

وبما أن الموضوع يعنيني ـ وافكر في العودة اليه ـ فانني أشير فحسب الى بعض الكتاب ـ لكن هناك غيرهم ـ الذين اثرت في مصنفاتهم رسالة السيف والقلم .

اول هؤلاء شاعر بلنسي معروف هو محمد بن غالب الرصافي (توفي ١٩ من رمضان سنة ٥٧٢ هـ = ٢١ من مارس من سنة ١١٧٧م) كتب مقامة نقل الينا ابن الخطيب فقرة منها في وصف القلم، تناولتها بالدراسة في فصل آخر من هذا الكتاب[٣٦] وبما أن المقامة لم تصلنا كاملة فاننا لانسمح لانفسنا بالمغامرة في الحكم على علاقتها برسالة ابن برد، لكني أستطيع ان أؤكد ـ على الاقل التبعية التي لاريب فيها في مدح القلم للكاتب نفسه والذي ترجمته سابقا .

ثاني هؤلاء هو المصري ابن نباتة (٦٨٧ ـ ٧١٦ هـ = ١٢٨٧ ـ ١٣١٦م) مؤلف (مفايرة بين السيف والقلم) توجد منها بعض مخطوطات، ونشرت في المشرق ضمن مؤلفات قصيرة اخرى تنضوي تحت نوع المناظرات[٣٧]

وقد استطعت ـ في النهاية ـ أن أحصل على رسالة ابن نباتة هذه، لكن قراءة عاجلة لها كانت حسبي لاقف على علاقتها الوثقى برسالة السيف والقلم لابن برد التي أخذ ابن نباتة حتى عنوانها .

ثالث هؤلاء هو الحريزي احد أدباء الاسبان (١١٦٥ ـ ١٢٢٥) المعروف بكتابه سفر تحكيموني :

SEFER TAHKEMONI [٣٧] وقد عرف ايضا ـ فيما يبدو ـ رسالة ابن برد . ففي المقامة رقم ٤٠ من تحكيموني استقبل هيمان خزرجي في احدى الامسيات التي انهكه فيها الالم صديقه العالم حبير هاكيني الذي ـ بعد الطعام وحمد الله) لام مضيفه لرميه قلمين تحطما عندما تهيأ لنسخ خطبته الرائعة، وفي الحال جلس يكتب مدحا للقلم، راويا حكاية ملك قديم ومحاورته مع وزرائه وقادته بعضهم ينافح عن القلم، وآخرون يفضلون السيف وبالتالي تعاور القلم والسيف والحوار حتى ختمه القلم في النهاية في هذه المقامة أيضا ..

لم تسمح لي ـ للأسف .. معرفتي باللغة العبرية بقراءة النص في لغته الأصلية وهي شديدة الصعوبة، لكني استطعت من خلال ترجمتين لها الى الألمانية احداهما لكرافت[٣٨] KRAFFT . في نثر مسجوع، وفي شعر لكي يحافظ على بناء المقامة، وثانيتهما لدوكس[٣٩] DOKES ـ وكلها في النثر ـ ان ارى ـ فضلا عن أن الهيكل مختلف ـ في صلبهما ـ أن التعليلات المتناجزة في وصف السيف والقلم سلبا وايجابا تقفو من قريب طريقة ابن برد . ومعروف جيدا أن معرفة الحريزي بلغة العرب وآدابهم معرفة ضخمة قد خولت له أن يترجم الى العبرية احد المصنفات الشديدة العسر وهي مقامات الحريري .

في سنة ١٩٥٢ نشر الاستاذ شيرمان : SCHIRMANN مقالا موجزا بالعبرية من مصادر تحكيموني للحريزي، ولم يشر فيه الى الموضوع الذي يعنينا[٤٠] . وبعد عشر سنوات حينما ظهرت الصفحات السابقة نشر دراسة هامة حول LES CONTES RIMES ليعقوب بن اليعازر الطليطلي[٤١] عاش في القرن الثالث عشر، مشفوعة بالتحليل . احدى هذهMESALIM الرابعة في المجموعة

موضوع عن القلم والسيف، دخل صاحباهما في مناقشة حول تفضيل احدهما على الآخر، واسبقيته، كي يصل في النهاية، ويعترف صاحب السيف بأن كليهما تابعان لله . وان كان الموجز الذي قدمه شيرمان يحتوي فقط على سطور قليلة[٤٢]، فان هذه الرواية تبدو صدى لرسالة ابن برد مع ختامها بحل الهي . وبعد ذلك يشير شيرمان الى ان المجادلة بين السيف والقلم موضوع يبدو له بكل تأكيد ـ انه ذو أصل عربي، وكذلك الاطار وهو يشير اشارة سريعة في هامش الفصل ٤٠ من تحكيموني الى ابراهام بيدريسي ABRAHAM BEDERSI محيلا على دراسته المعروفة عن الشعر العبري في اسبانيا وبروفانس[٤٣]

وقد نشر مؤخرا صديقي العزيز فرناندو دياث استيبان دراسة هامة عالج فيها مناظرة القلم والمقص للكاتب المشهور سيم توب دى كارّيون SEM TOBDE CARRION، وهي عبارة عن دراسة مكثفة وهامة تأخذ في الحسبان الى حد كبير صفحاتي هذه في الجزء العبري، حيث ترجم ـ ليس فحسب مناظرة سيم توب ـ بل أيضا المقامة رقم ٤٠ في تحكيموني التي اوجزتها سابقا، وهي دراسة أحيل عليها القاريء الذي تهمه القضية[٤٤] .

رسالة النخلة

النخلة هي أحد الموضوعات القديمة الى جانب الناقة والطلول الدوارس في الادب الجاهلي . وعندما انتقلت الثقافة العربية من الصحراء الى الحاضرة انتقلت معها الموضوعات التقليدية في الشعر الجاهلي، وليس لهذا علة في البداية ـ سوى الحنين، وسطوة التقاليد الراسخة في مجمل الأمر .

لانعرف العنوان الاصلي لهذه الرسالة (النخلة) الذي سماها به ناشرو الذخيرة، وهي رسالة مناسبات تدخل في اطار الكتابات الصغيرة ذات الطابع المهرجاني في الادب العربي، والتي نحتفظ منها بمجموعة كثيرة من تصنيفات أدباء الأندلس . هي عبارة عن رسالة من ابن برد الى صديقه ابي عبدالله، يلومه فيها على انانيته وبخله، لأنه لم يدعه الى الأكل من جنى نخلته.

يبسط الكاتب القول في هذا الموضوع الذي سوى تعلة للكتابة ـ المأساة الضخمة في الأدب العربي الكلاسيكي اللغة الجميلة، وفقر المضمون ـ بكبار الادباء ـ مستعرضا قدرته وتضلعه في رشاقة شره المسجوع .

رسالة كهذه حين تعرى من ثوبها الأصلي، وينقلها الى لغة اخرى غير حاذق لاتكاد تبدو ـ كما يقول العرب ـ الا كلاما فارغا لدى غير المستعربين . هل في وسع حزن الكاتب أن يسوغ كل هذه الصفحات لكونه لم يذق جنى النخلة (غريبة عن وطننا) يقول هذا ليناقض نفسه ـ فيما بعد ـ حينما يتحدث «التمر» المعروض للبيع في الاسواق ؟

ليس مسوغا بمنتهى الوضوح، وحتى من المحتمل ان تكون هذه التعلة الواهية هي فحسب مجرد اختراع، فانه يتأتى معها أن تكون مبالغة ممقوتة، لكن ابن برد ـ مثله في ذلك مثل اغلبية الكتاب العرب في كل العصور ـ كان يشعر بالحاجة الى الكتابة ليفرغ على الورق العبارات البديعة، والكلمات المهجورة، والاستعارات المجنحة، والتعبيرات الذكية، هذا هو المسوغ الاكبر .

سوف يكتب ايضا ـ فيما بعد ـ عن نخلة غرناطية ـ اديب اندلسي هو ابو الحسن الجذامي التباهي (مات في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي) مقامة وصلت الينا بعنوان المقامة النخلية، واتبعها المؤلف بتعليق مسهب[٢١]

عن النخلة في الاندلس كتب منذ سنوات الأستاذ هنري بيريس دراسة جيدة جمع فيها كل النصوص الادبية والجغرافية التي استطاع الوقوف عليها[٢٢] . وعليه وفقا لمعلوماته الواسعة بالادب العربي أن يضم اليها رسالة ابن برد هذه التي كانت مخطوطة حينذاك، على هذه الدراسة أحيل القارىء كيلا أبسط القول في موضوع طرقه العلامة المستشرق الفرنسي بأستاذية معهودة فيه .

الهوامش

١ ـ انظر الذخيرة ٢/١ ص ١٨ ـ ٥٢

٢ ـ مطمح الأنفس ص ٢٤، ٢٥

٣ ـ المغرب جـ ١ ص ٨٦ ـ ٩١

٤ ـ ابن بشكوال ـ الصلة . ص ٤٠

٥ ـ الذخيرة ١/١ ص ٨٤

٦ ـ ابن الأبار ـ التكملة حـ ١ ص ١٢٤ . ترجمة رقم ٤٣٥ . خبر مأخوذ بعضه عن ابن حيان . وهذه الترجمة اخذها ابن عبد الملك في الذيل والتكملة جـ ٥ ص ترجمة رقم ١١٧١

٧ ـ البيان المغرب جـ ٣ ص ١٣٢

٨ ـ الذخيرة ١/١ ص ٩٧ ومابعدها .

٩ ـ الذخيرة ٢/١ ص ٥١

١٠ ـ الذخيرة ١/١ ص ٥٦١، وفي نفح الطيب مع بعض اختلاف حـ ٢ ص ٤١٣، وحلل النص هنري بيريس في كتابه عن الشعر الاندلسي ص ٨٦، ويبدو لي غير مرض

١١ ـ المغرب جـ ١ ص ٨٥

١٢ ـ البيان المغرب جـ ٣ ص ١٩٠ .

١٣ A . R . NYKL, HISPANO — ARABIC POETRY . PP . 121 . 122 ـ د . نيكل . الشعر الأندلسي . ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

● ترجم صديقي الجليل العلامة الدكتور الطاهر مكي كتاب بيريس «الشعر الاندلسي» الى العربية [المترجم]

١٤ ـ هنري بيريس . الشعر . ص ٤، وهامش ١ . وراجع الذخيرة ١/١ ص ٨٤، ٨٦ . وانظر ليفي بروفنسال : تاريخ اسبانيا الاسلامية (المجلد الرابع من تاريخ اسبانيا باشراف د . مينذث بيدال . مدريد ١٩٥٩) ص ٤٥٦، ٤٨٨ هامش ٣ .

١٥ ـ هنري بيريس ص ٩٤، وقارنه بالذخيرة ١/١ ص ٩٤ .

١٦ ـ المغرب حـ ١ ص ٩١ .

١٧ ـ د . دوزي . بحوث ط ٣ : RECHERCHES³ . حـ ١ ص ٢٤٢ .

١٨ ـ هذا التاريخ يشير ـ كما قلنا ـ الى ترجمة ابيه في التكملة لابن الأبار رقم ٤٣٥ .

١٩ ـ راجع . ابو الوليد الحميري . البديع في وصف الربيع . المنشور بعناية هنري بيريس ـ الرباط عام ١٩٤٠ ص ٢٢

٢٠ ـ المرجع السابق، ص ٥٢ ـ ٥٨ . ورد أبي الوليد في ص ٥٨ ـ ٦٧، انظر ايضا هذا الموضوع المشهور . بيريس عن الشعر الاندلسي ص ١٨٤، ١٨٥

٢١ ـ قارن . الحميدي . الجذوة ص ١٠٧، ونقل الضبي في البغية ص ١٥٣، ويسميه في الواقع ـ ابا محمد بن حزم .

٢٢ ـ الذخيرة ١/٢ ص ٢٧ ـ ٥٢

٢٣ ـ = ١/٢ ص ٣٨

٢٤ ـ = ١/٢ ص ٣٩

٢٥ ـ = ١/٢ ص ٣٨ ، ٣٩

٢٦ ـ = ١/٢ ص ٣٩، ٥٠

٢٧ = ١/٢ ص ٥٠

٢٨ ـ = ١/٢ ص ٤١

٢٩ ـ = ١/٢ ص ٥٠

٣٠ ـ مطمح الانفس ص ٢٤

٣١ ـ راجع المطمح ص ٢٤، ٢٥، والجذوة ص ١٠٧، ١٠٨، والبغية ص ١٥٣، ١٥٤، والذخيرة ١/٢ ص ٣٧، ٤٨، ٤٩، ٥١ .

٣٢ ـ نفح الطيب جـ ٢ ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨ .

٣٣ ـ المغرب جـ ١ ص ٩٠، ٩١

٣٤ ـ راجع الذخيرة ١/٢ ص ٣٧، ٣٨، ٤٠، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩ .

٣٥ ـ النص العربي ص ٤١، وترجمته الاسبانية ص ١٨٠ .

٣٦ ـ عنوان المرقصات والمطربات . طبعة عبدالقادر مهداد ـ الجزائر عام ١٩٤٩ ص ٢٢، ٢٣ .

٣٧ ـ نفح الطيب جـ ٢ ص ١٢٣، وراجع فضل الاسلام الاسباني . ترجمة اميليو غرثيه غومث . مدريد، غرناطة عام ١٩٢٤ ص ٦٥

٣٨ ـ المغرب جـ ١ ص ٩١

٣٩ ـ قارنه بما يأتي ص ٥٤ .

٤٠ ـ أنظر خاصة الملحق ص ٥٥، ٥٦ .

٤١ ـ انظر ماسبق ص ١١

٤٢ ـ انظر ماسبق ص ١٠، ١١

٤٣ ـ راجع الذخيرة ١/٢ ص ٥٢ هامش ١

٤٤ ـ الذخيرة ١/٢ ص ٤٣٥ ـ ٤٤١ .

٤٥ ـ معجم الأدباء جـ ٥ ص ٤١ ـ ٤٣ .

٤٦ ـ ينبغي أن يضاف الى المصادر المدروسة تلك المصادر التي ذكرها هنري بيريس في «الشعر في فاس على عهد المرابطين والموحدين» في مجلة هسبريس عدد ١٧ عام ١٩٣٤ هامش ١ ص ١٥ . ولم تقل تلك المصادر شيئا جديدا . لم استطع استشارة المخطوطات ولا كتاب أحمد ضيف . بلاغة العرب في الاندلس . القاهرة عام ١٣٤٢ هـ .

٤٧ ـ مطمح الأنفس ص ٢٤

٤٨ ـ نفح الطيب جـ ٢ ص ٣٦٧ .

٤٩ . HispoNo ARAbic PoETRY . P 122

٥٠ ـ البغية ص ١٥٣

٥١ ـ الجذوة ص ١٠٧ .

● وهم الاستاذ جرانخا في عزوه بيت ابي تمام الى بحر الطويل وعدلناه في المتن [المترجم]

٥٢ ـ ديوان ابي تمام بشرح التبريزي . تحقيق محمد عبده عزام . القاهرة سنة ١٩٥١ . جـ ١ ص ٤٥ . وعن عمورية المعروفة قديما باسم . AMORiUM راجع دائرة المعارف الاسلامية ط ـ ٢ ص ٤٦٢ . مقال (م . كانارد) .

٥٣ ـ اميليو غرثيه غومث . خمسة شعراء مسلمون ص ٥٧، وراجع ص ٤٧، ٤٩ التي يشير فيها الكاتب الى ازدواجية السيف والقلم في شعر المتنبي [ترجم هذا الكتاب ترجمة جيدة الى العربية صديقي العلامة الدكتور الطاهر مكي ـ المترجم]

٥٤ ـ انظر عن هذه القضية : الشعر الأندلسي لاميليو غرثيه غومث . حول خسوف الشعر في اشبيليه على عهد المرابطين في مجلة الاندلس عدد ١٠ سنة ١٩٤٥ ص ٣١٨ حيث يشير الى ابن برد . وكذلك هنري بيريس في كتابه الشعر الاندلسي ص ٤٣٦، ٤٣٨ .

٥٥ ـ لم تنته رسالة ابن برد بانتصار القلم كما يقول بيريس في «الشعر في فاس .. ص ١٥» المذكور سابقا في هامش ٤٦ .

٥٦ ـ لم ينته الموضوع . لكن من المفيد ـ من حيث البداية ـ الرجوع الى مقال غونثالو مينذث بيدال «الاسلحة والآداب» في مجلة الاسكوريال عدد ٤٢ سنة ١٩٤٤ ص ٢٢٧، ٢٤٤ .

٥٧ ـ الذخيرة ١/٢ ص ٢٨

٥٨ ـ المغرب جـ ١ ص ٨٧، ٨٨

٥٩ ـ المرجع السابق جـ ١ ص ٨٦

٦٠ ـ القرآن الكريم سورة الانفطار . آية ١١، ١٢ .

● [ ] مابين معقوفتين ليس في الترجمة الاسبانية وقد راينا نقله [المترجم] .

٦١ ـ من بين عناوين المؤلفات التي أجهل مسقط رأس كتابها والعصر الذي عاشوا فيه، والذين يوجدون في ملحق جال، يذكر بروكلمان مفاخرات السيف والقلم لمحمد بن أحمد الكاتبي الأندلسي (قارن ملحق حـ ٢ ص ٩١٠ رقم ٥٣ والتي ينبغي بلا ريب أن تكون الرسالة التي نتحدث عنها والتي اعتود عنوانها وبخاصة اسم كاتبها التغيرات الشرقية المعروفة ويجب أن نتعود عليها حينما يتعلق الأمر بمؤلفات وكتاب أندلسيين.

٦٢ ـ سياتي في الفصل الخامس ص ١٣١ ـ ١٣٧

٦٣ ـ مناظرات في الادب . طبعة عزت العطار ـ القاهرة ١٩٣٢، وملكتبه «ابن نباته يستغرق من ص ٥ ـ ١٩ .

٦٤ ـ VIEZIGSTE MEKAME . SCHWERT UND FEDER SIN-DIM STEITE, - WER DEN GROSSTEN NUTZEN BEREIT, EN LITERATWRBLATT DES ORIENTS, 1840, HEFT 13, PP. 196- 198, HEFT 14, PP 213 - 215.

٦٥ ـ FEDER UND SCHWERT STREITEN, WER DEN MENSCHEN UND IBREN KRIEGEN MEHR BEDURFNISS ist, EN LEOPOLD DUKES, EHRENSAULEN UND DENK-STEINE ZU EINEM KUNFTIGEN PANTHEON HEBRAIS - CHER DICHTER UND DICHTUNGEN, WIEN 1873, PP 92 - 94. وأشكر الآنسة أورسولا جارتنير اهتمامها وعنايتها الكبيرة ان امدتني بصورة من هاتين الترجمتين .

جارتنير اهتمامها وعنايتها الكبيرة ان امدتني بصورة من هاتين الترجمتين .

٦٦ ـ H . SCHIRMAN, L - HEqER mqOROTAU SEL SEFER HA - TAHKMONIL - YHUDA AL - HARÎZÎ, EN TARBIZ, 23, 3 - 4 (1952) PP 198 - 202. كل هذه الفقرة حتى الاستشهاد الذي يليها اضفته الى هذه الصفحات التي كانت قد ظهرت من قبل في سنة ١٩٦٠ .

٦٧ ـ EN ETUDES D. ORIENTALISME DEDIEES A LA MEMOIRE DE LEVI - PROVENCAL, PARIS 1962, 11, 285 - 297.

٦٨ ـ المرجع السابق ص ٢٨٨

٦٩ ـ المرجع السابق ص ٢٩٣ وهامش ١٢، وعن ابراهام بيدرس (القرن : ١٢) وعلاقته بالموضوع انظر المؤلف الذي اذكره في الهامش التالي ص ٨٤، ٨٥ .

٧٠ ـ ديات استيبان «مناظرة القلم والمقص» ليم توب اردوتيل، ودون سانتودى كاريون . في مجلة جامعة مدريد مجلد ١٨ . عدد ٦٩ [١٩٦٩] ص ٦١ ـ ١٠٢ .

٧١ ـ عنوان الكتاب . مقامة وتعليق هو : كتاب البصائر والابصار محفوظ في مخطوطتين في مكتبة الاسكوريال، ولدىّ مقامة النباهي مترجمة ونشرها ماركوس جوزيف مولر في BEITRAGE ZUR GESCHICHTE ARABER, MUN-CHEN 1866, PP . 139 - 159. لكني تركتها دون نشر؛ لان الدكتور مكي اخبرني ان لديه مخطوطا آخر مغربيا ويفكر في نشر طبعة جديدة وكاملة لها .

٧٢ ـ هنري بيريس . النخلة في اسبانيا الاسلامية، NOTES D'APRES LES TEXTES ARABES, EN MELANGES GAUDEFROY - DEMOMBYNES, CAIRO, 1935 -1945 PP . 225 - 239.

* * *

رسالة في السيف والقلم كتبها الى الموفق ابي الجيش مجاهد .

يقول فيها : اما بعد حمد الله بجميع محامده وآلائه، والصلاة على خاتم انبيائه، فان التسابق من جوادين سبقا في حلبة، وقضيبين نسقا في تربة، والتحاسد من نجمين انارا في افق، وسهمين صارا على نسق، والتفاخر من زهرتين تفتحتا من كمامة، وبارقتين توضحتا من غمامة، لاحمد وجوه الحسد وان كان مذموما مع الابد، وربما امتد احد الجوادين بخطوة، او خص احد القضيبين بربوة، او كان احد السهمين انفذ مصيرا، او راح احد النجمين اضوا تنويرا، او غدت احدى الزهرتين اندى غضارة، او امست احدى البارقتين اسنى إنارة، فالمقصر يرتقب تقدما، وتقارب الحالتين في المجانسة، يشب نار المنافسة، وان حال بينهما قدح النقاد، وقبح تحاسد الاضداد .

وان السيف والقلم لما كانا مصباحين يهديان الى القصد، من بات يسرى الى المجد، وسلمين يلحقان بالكواكب، من ارتقى لساميات المراتب، وطريقين يشرعان نهج الشرف لمن تقرى اليه، ويجمعان شمل الفخر لمن تاشب عليه، ووسيلتين يرشفان العلى فم عاشقها، ويبسطان في وصال المنى يد وامقها وشفيعين لايؤخر تشفيعهما، ومجمعين لايفرق تجميعهما جررا اذيال الخيلاء تفاخرا، واشما بانف الكبرياء تنافرا، وادعى كل واحد منهما ان الفوز لقدحه، وان الدر من اصدافه، وان البكر من زفافه، وان البناء من تشييده، وان الملاء من تعضيده، وان كباء الثناء موقوف على مجامره، وان خطيب الفخر محبوس على منابره، وان حلل المآثر من نسيجه، وان افراد المفاخر من تزويجه، وحين كشف الجدال قناعه، ومد الخصام ذراعه، وهز الاباء من عطفه، واشم الانف من انفه، قاما يتباريان في المقال، ويتساجلان في الخصال، ويصف كل واحد منهما جلال نفسه، ويذكر فضل مااجتنى من غرسه، ويباهى بمنقبة نافرت السها، ومرتبة ريضة خيسها ورياسة من ذوائب الجوزاء صادها، ونباهة في صهوة العيوق افادها .

فقال القلم : ها! الله اكبر! ايها المسائل بدءا يعقل لسانك ويحير جنانك وبديهة تملأ سمعك، وتضيق ذرعك، خير الاقوال الحق، واحمد السجايا الصدق والافضل من فضله الله عز وجل في تنزيله، مقسما به لرسوله، فقال : «ن . والقلم ومايسطرون» وقال «اقرا وربك الاكرم الذي علم بالقلم» . فجل من مقسم . وعز من قسم! فماتراني وقد حللت بين جفن الايمان وناظره، وجلت بين قلب الانسان وخاطره، لقد اخذت الفضل برمته، وقدت الفخر بازمته .

فقال السيف : عدنا من ذكر الطبيعة الى ذكر الشريعة، ومن وصف الخصلة الى وصف الملة، لااسر ولكن اعلن، قيمة كل امرىء مايحسن، ان عاتقا حمل نجادي لسعيد، وان عضداً بات وسادي لسديد، وان فتى اتخذني دليله لمهدي، وان امرأ صيرني رسيله لمفدى، يشق مني الدجى بمصباح، ويقابل كل باب بمفتاح، افصح والبطل قد خرس وابتسم والاجل قد عبس، اقضى فلا انصف وامضى فلا اصرف، ازرى بالوفاء، واهتك اللامة هتك الرداء!

فقال القلم : نعوذ بالله من الحور بعد الكور، وقبحا للتحلي بالجور! و[الخيانة] تسود مابيض الصفاء، وتكدر ماالخلص الاخاء، وتؤكد اسباب الفتن، وتضرب بقداح الحق ابلج، والباطل لجلج ان .. [تأبى النصفة] فانها في قدحها لمأمونة الطائر، محمودة الباطن والظاهر، احكم فاعدل، واشهد فاقبل، وترحل عزماتي شرقا وغربا ولا ارحل، اعد فأني واستكفي فأكفي، اجلب الغنى من ضروعه، واجتنى الندى من فروعه، وهل انا الاقطب تدور عليه الدول، وجواد شأوه يدرك الامل، شفيع كل ملك الى مطالبه، ووسيلته الى مكاسبه، وشاهد نجواه قبل كل شاهد، ووارد معناه قبل كل وارد .

فقال السيف : يالله! استنت الفصال حتى القرعى! ورب صلف تحت الراعدة، لقد تحاول امتدادا ببباع قصيرة، وانتفاضا بجناح كسيرة، امستعرب والفلس ثمنك، ومستجلب وكل بقعة وطنك؟ جسم [عار] ودمع بار تحفى فتنعل بريا، حتى يعود جسمك فيأ، ان الملوك لتبادر الى دركي ولتتحاسد في ملكي، ولتتوارثني على النسب، ولتغالى في على الحسب، فتكللني المرجان وتنعلني العقيان،

وتلحفني بخلل كحلل، وحمائل كخمائل، حتى ابرز براز الهندي يوم الجلاء والروض غب السماء .

فقال القلم : من ساء سمعا ساء اجابة : أستعيذ بالله من خطل ارعيت فيه سوامك وزلل افتتحت به كلامك! ان ازدراءك بتمكن وجداني، وبخس اثماني، لنقص في طباعك، وقصر في باعك، الا وان الذهب معدنه في العفر، وهو انفس الجواهر، والنار مكمنها في الحجر وهي احدى العناصر، وان الماء وهو الحياة اكثر المعايش وجدانا، واقلها اثمانا، وقلما تلفي الاعلاق النفسية، الا في الامكنة الخسيسة . واما التعري، فغنينا بالجمال عن جرّ الاذيال، وهل يصلح الدر حتى يطرح صدفه، او يبتهج الاغريض حتى يشذب سعفه، أم يتلالا الصبح حتى تنجلي سدفه، ان الضحاء للرجال معروف، وان الخفر على النساء موقوف، ولولا جلاء الصياقل صداك لاسرعت ذهابا، وعدت مع التراب ترابا .

فقال السيف : جعجعة رحى لايتبعها طحن، وجلجلة رعد لايليها مزن، في وجه مالك تعرف إمرته، وجه لئيم، وجسم سقيم، وغرب يفل، ودم يطل، ودموع سجام، كانهن سخام، ورأس لم يتقلقل فيه لب، وجوف لم يتخضخض فيه قلب، اوحش من جوف العير يشهد عليه كثرة الجور بقلة الخير، فهب من نومك، وافطر من صومك، وتحكم بطرف نظار، في جسم ماء وحلة نار . ان انتضاني جاهل، أوهمته اني سائل، ففر خوفا أن يغرق، وولى حذرا ان يحترق في بحر زبده الشُعل وبرق سحَابه الخلل، لو انتضيت والشمس كاسفة لم ينظر وقت تجليها، او السنون مجدبة أيقن بالحيا راعيها، قد خط الفرند في صفحتي امثال صغار الخيلان، في البيض من صفحات الحسان، اكرع يوم الوغى في لبة البطل، فاعود كالخد كسي صبغ الخجل، كأنما اشتملت بالشقيق، او شربت ماء العقيق .

فقال القلم : ان كنت ريحا فقد لاقيت اعصارا، ماكل بيضاء شحمة، ولاكل سوداء تمرة، ان ماءك السائل لجامد، وان جرحك الملتهب لبارد، ولن يغرق فيه حتى تكرع في السباسب العطاش، ولن يحترق به حتى يقع في نار الحباحب الفراش، فاقصر عن جفنك من العمى رواقا، واحلل من خصرك للجهل نطاقا، يسفر البلاء لك عن قضيب عاج، ولسان سراج، وقدح ورق جلل بالعقيان، وحلة نرجس فوق جسم اقحوان، للبل في فوديه لطخ، وللمسك في صدغيه نضخ، أنجلى عن المهارق، انجلاء الغمام عن الحدائق، وأرقم في بطون الصحف، مالايرقم الربيع في الروضة الأنف، من منمنم يختال بين مسهم، ومعضد فوق مسرد .

ولما كثر تعارضهما، وطال تراوضهما، وقابل كل واحد منهما بجمعه جمعا، وقرع بنبعه نبعا، ولم ينثنِ احد الصارمين كهاما، ولا ارتدّ أحد العارضين جهاما، تبادرا الى السلم يعقدان لواءها، والى المؤالفة يردان ماءها، وقالا : ان من القبيح ان تتشتت اهواؤنا وتتفرق آراؤنا، وقد جمعنا الله في المأنف الكريم، وأحلنا بمحل غير ذميم، بأعلى يد نالت امالها، ووافت المطالب في أوطانها، ولم تقابل بابا مغلقا الا قرعته، ولاحجابا مضلعا الا رفعته، ولاجدّاً عاثرا الا اقالته، ولا املا غائرا الا أسالته، تلك يد الموفق أبي الجيش مولى المعالي ومسترفها، ومستوجب المكارم ومستحقها، العاقد لواء المجد بذوائب السماك، والمطل بفخره على الافلاك ـ والمقدم اذا احجمت الأبطال، والضاحك اذا بكت الآجال، والساري الى العلياء اذا ادلج الكرام، والمسهد في الآراء اذا هجد الانام، والطالب ثأر العديم بجوده، والمشفع النيل بمزيده، والمسعف لميعاده، والمخلف لايعاده، والمجري في ذاويات الهمم ماء، والمطلع في ظلمات الآمال سناء، فاذا قد عدل بيننا بحكمه، يوم وغاه ويوم سلمه، فجاوز بك حد المسالمة، وجاوز بي حد المشارسة، ولم يثنك حتى بلغ مناه، ولم يثنني حتى وافق [هواه] ولم يقصر بي عن غاية بلغك اليها ولم يقدمك الى مرتبة اخرني عنها، فأجمل رداء نرتديه، وأفضل حذاء نحتذيه، وأهدى سبيل نقصده، وأصفى منهل نرده، مؤالفة نجرر ذيلها، ونميل ميلها، ومعاشرة نتجانى ثمارها، ونتعاطى عقارها، ذنوب نخلي اوطانها، ونهدم بنيانها، ودمن نعفي دمنها ونرد في أجفانها وسنها .

ثم قال القلم : ان تمانبرم به عقدنا، وننظم عقدنا ويستظهر به بعضنا على بعض، ان حالت حال، كان للدهر انتقال، أن نخط كتابا مصيبا يكون لنا منابا وعلينا رقيبا، فقد يدب الدهر بعقاربه، بين المرء وأقاربه، ويسعى بالنميمة، بين الفرعين من الارومة .

فقال السيف : أنت والبيان، وجرياً والميدان، فقال القلم : ان النثر في ذلك مثل يسير، وان الشعر في ذلك ذكر خطر، وانه لشدو الحادي، وزاد الرائح والغادي، واختاره على النثر تنويها بالذكر فقال :

قد آن للسيف الا يفضل القلما
مذ سخرا لفتى حاز العلى بهما
ان يجتنى المجد غضا من كمائمه
فانما يجتنى من بعض غرسهما
ماجاريا املا فوافيا أمداً
الا وكانت خصال السبق بينهما
سقاهما الدهر من تشتيته جرعا
ولليالي حروف تقطع الرحما
حتى اذا نام طرف الجهل وانتبهت
عين النهى قرعا سنيهما ندما
راحا بكف أبي الجيش التي خلقت
غمامة كل حين تمطر النعما
فعاد حبلهما المنبت منعقدا
وراح شملهما المنفضّ ملتئما
يا ايها الملك السامي بهمته
الى سماء علا قد اعيت الهمما
لولا طلابي غريب المدح فيك لما
وصفت قبل علاك السيف والقلما
وانما كان تعريضا كشفت به
من البلاغة وجها كان ملتثما .

رسالته في النخلة

اما بعد : جعلك الله من المؤثرين على أنفسهم والموقين شحها، والمنجزين لمواعيدهم والمعطين صدقها فقد علمت ماسلف لنا في العام الفارط من عتابك ولبسنا شكته من ملامك، لماكتمتنا صرام النخلة التي هي بأرضنا احدى الغرائب، وفريدة العجائب، هربا من ان نلزمك الاسهام في رطبها، وحرصا على تمام لذة الاستبداد بها، وقلت، وقد سألناك من جناها قليلا، ورجونا أن تنيلنا منها ولو فتيلا : ولو علمت أن لكم به هذا الكلف، واليه هذا النزاع، لامسكته عليكم، وجعلت حكم جداده، اليكم، ولكنها ان شاء الله في العام الآنف غلتكم، عتاد نفيس لكم وذخر حبيس عليكم .

فأما نحن فرسمنا تلك العدة في سويداوات قلوبنا، ووكلنا بها حفظة خواطرنا، وأما أنت فهلت عليها التراب، وأسلمتها الى يد البلى، حتى اذا اخذت الارض زخرفها، وازينت زينتها، وبلغت غايتها، واشبع القمر صبغها واحكمت الشمس نضجها، دببت اليها الضراء بصرامك، ومشيت نحوها الجهر بجرامك وتحكمت فيها تحكمه في عنيزته، ولما رأينا على ذلك طلائع الرطيب في الاسواق والجنى من بكر النخيل على الاطباق، هزت جوانحنا ذكر العدة، وقلقل أحشاءنا حذر الخيبة، فركضنا المهاليج الى حرمتك، وجعلنا نشتد طمعا في لقائك، فلما غشينا الجهة تلقانا فتى وضاح الجبين آخذ بالعيون، في وجهه للادب شاهد ، وبين عينيه من الظرف رائد، فقال : « بأبي أنتم، وعين الله تكلؤكم حيث كنتم، اراكم ناشدى ضالة او مستدركى سيب فائت، فاسألوا فربما سقطتم على الخبير، وشاوروا فالمشورة تفتح غلق الامور» فقلنا له : «وبآبائنا أنت! إنا لنرجو بيمن لقياك ظفرا بالمطلب، ونجحاً في المذهب . جارك وصديقنا الذي نحن تلقاء منزله، وفي حاشية محله، وعدنا منذ عام بان يسهم لنا في جنى نخلة لديه، لم تتفقا تربة هجر عن مثلها، ولاأوت قماري بصري الى شكلها، فجئناه لناكل منها وتطمئن قلوبنا، ونعلم أن قد صدقتنا، ونكون عليها من الشاهدين» .

قال الفتى : «يالاخواني في الخيبة، وشركائي في فوت الامل! أنا ساكن المحلة التي منبت هذه النخلة في ساحتها، وقد صرمها منذ خمسة عشر يوما، ولقد كنت قبل صرامها أمنحها نظر العاشق الى المعشوق، فاذا رأت الطير وهي على سعفها ما أواصل اليها من لحظاتي، وأتابع عليها من زفراتي، رمتني بأفراد من رطبها أحلى من شفاه العذارى، وأنا اليوم أبكى منها ربعا خاليا، وبعد ثالثة أغدو عنها جالياً» .

فيا هذا الخيس أبا عبدالله بعهدك، وماهذه الربدة في وجه عدوّك، وماهذا الاستئثار على اخوانك المؤثرين لك؟ ان كنت لم تحضرنا يوم صرامها لنحتكم على قولك فيها، ونأخذ معك بأجزل الأقسام منها، فالعذر لايضيق عنك، واللوم لاينبسط اليك. هات مما ذخرته لساعات تفكهك، اسهم لنا فيما اعتدته ليوم نوروزك. لم يكن جناها بنزر فيتقسمه الاهداء ولا بدون فتطيب عنه النفس. ولاتخش منا ما افسد به [ابن الزبير عماله]، حين قال لهم «أكلتم تمري وعصيتم أمري» اذا نحن أكلنا منها فمرنا نناصب عنك اعداءك برا وبحرا، ولانعص لك امرا، جعلنا الله فداك، نحن عصابة نتحلى بأدب، وننتمي الى حفظ غريب، وصياغة قريض. وربما لم تصدق في هذا الطريق مضاءنا، ولاقبلت يقينا أناءنا، فأردنا أن نصف لك شيئا من كلام العرب في النخل وبدء نباته، والتمر وتلوّن حالاته، فان سرّك ماجئنا به وراقك ماأفضنا فيه، جعلت جوائزنا تمرا، وكان ذلك لنا اجرا!

نعم، تقول العرب لصغار النخل : الجثيث، والوديّ، والهراء، والفسيل، والأشاء، والكافور، والضمد، والاغريض، فاذا انعقد سمته السياب، فاذا اخضر قبل أن يشتد سمته الجدال، فاذا اعظم فهو البسر، فاذا صارت فيه طرائق فهو المخطم، فاذا تغيرت البسرة الى الحمرة فهي شقحة، فاذا ظهرت الحمرة فهي الزهو وقد أزهى، فاذا ابدت فيه نقطة من الارطاب قيل قد وكت، هي بسرة موكتة، فاذا أدرك حمل النخلة فهو الاناض، فاذا اتاها التوكيت من قبل ذنبها فهي مذنّبة فاذا ابلغ الارطاب نصفها فهو المجزع والمجزع لغتان، فاذا بلغ ثلثيها فهي حلقانة فاذا جرى الارطاب فيها كلها فهي مُنسِتة .

فيا أبا عبدالله أمجدنا رطبا، نمجدك خطبا، هذا قليل من كثير، وثماد من بحور وليس يطيب وصفنا نظما ونثرا لمناقب هذه النخلة الا بعد اختيارنا منها، وفوز قداحنا بها، اذا أنت فعلت فكلفنا فيها خاصة ماتكلفه عمرو بن بحر الجاحظ في نخل الدنيا عامة نائك به، ونربي فيه عليه، ولعلك تحب أن تسمع شيئا من منظوم الكلام في النخل يذيب من جمودك، ويولد عقيم جودك، فالمنظوم خداع بحسنه، مستميل بطنه، أنشد الاصمعي لأبي الغفار الرياحي :

غدت سلمى تعاتبني وقالت ... رأيتك لاتريغ لنا معاشا
فقلت لها أما تكفيك دهم ... اذا أعملت كن لنا رياشا
بوارك ماييالين الليالي ... ضربن لها وللأيام جاشا
اذا ماالقاريات طلبن مدت ... بأسباب ننال بها انتعاشا
ترى أمطاءها بالبسر هدلا ... من الألوان ترتمش ارتعاشا

هذا وانا لنخش انك أزيد تماديا في امرك، وأعظم شحا على تمرك، اراغة المعاش ومعالجة الاقتيات . فقال لها . في النخل التي رزقنا الله كفاف من العيش كاف، وبلغة من القوت مقنعة ثم أعظم من أمرها بدنو طعامها في الجدوب، وصبرها لتصرف الليالي والأيام، وماترى أرسل هذه الابيات على ألسنتنا إلاشيطان قد شكا اليك عسرة، فأنلته بسرة، فهو يحب ابقاءنا عندك، ودفع متطفلي الاخوان عنك، فلعن الله الشيطان وأعاذنا منه، وصلى الله على محمد ولاصدنا عنه، فانه يقول : «نعمت العمة لكم النخلة» والخطاب لجميع المسلمين وأنت قد استوليت على عمة من عماتهم تستبد بخيرها دونهم، وتمسك معروفها عنهم . ونحن رجال من بني أخيها أتينا نعتفيها، فان أنت سويتنا مع نفسك فيما تدر به عليك، وتملأ منه يديك، والاّ نافرناك الى السلطان، وألبنا عليك أبناء الزمان، ونستغفر الله ونسأله أن يبدلنا من بخلك نوالا، وبمطلك اعجالا!

ملحق

حفظ لنا ابن بسام في الفصل الذي خصصه لابن برد الأصغر في

الذخيرة بعض فقر من كتابه سر الأدب وسبك الذهب، أنقله فيمايلي :

قال ابن بسام :

كان أبو حفص بن برد الأصغر في وقته فلك البلاغة الدائر، ومثلها السائر، نفث فيها بسحره، وأقام من أودها بناصع نظمه وبارع نثره، وله اليها طروق، وفي عروقها الصالحات عروق، اذ كان جدّه أبو حفص الأكبر واسطة السلك . وقطب رحى الملك بالحضرة العظمى قرطبة . وقد فخر أبو حفص هذا بذلك في كتابه الموسوم بـ «سر الأدب وسبك الذهب» من ارجوزة يقول فيها .

ياطالب الدنيا باقصى الجهد	اسع بجد منك لا بكد
من شاء خبري فانا ابن برد	حد حسامي قطعة من حدى
أرفع الناس بناء جدى	من نظم الالفاظ نظم العقد
ونقد الكلام حق النقد	وكف بالاقلام ايدي الاسد
به استضاء في الخطوب الربد	كل امام وولى عهد ...

فصول مقتضبة من كتابه المذكور :

قال في صدره أما بعد، فان الله تعالى ـ وله الحمد ـ جعلنا أهل بيت أشرب حب صناعة الكلام نفوسهم، وشغل بطلب البيان والتبيين قلوبهم، فقذانا بالبحث عن الاصول، على حسب ماوهب الله تعالى لنا من المعرفة، وسهل علينا من الحزونة، حتى عرفنا المقسوم لنا منها فتفقهناه، وفهمنا المنعم به علينا فأحكمناه، ثم انعطفنا على الفروع فذهبنا مع فنونها واستكثرنا من عيونها، ثم انا لما رأينا أن الاصول قد اخترناها زكية المنابت طيبة المغارس، وان الفروع قد لوينا لدنة الأفنان عذبة [الجنى]، ترامت بنا آمالنا الى أن نجتني من زهرتها ونطعم من ثمرتها، فرأينا أن نمد يدا الى غرس قد ابرناه حتى بلغ اناه، فنقطف من خياره! ونتأنق في اختياره، وأصبحنا بعد نرمي اغراض الكلام بأسهم ازرها التسديد، ونعقل مناظم القول بألسن بريء منها التعقيد، ونذيب من المنثور جداول النطاف، ونجمد من المنظوم جواهر الأصداف، وكان جدى احمد بن برد ـ رحمه الله ـ بطول ممارسته لهذه الصناعة برخاء اللبب والنهمة في الطلب، ودعة الزمان واقبال السلطان، ومسافة العمر المتدة له، قد اقتعد سنامها، ورفع اعلامها، وأصبح امامها، وزين ايامها، وركب وسط مساقها، واحرز قصب سباقها .

وفي فصل منه :

فاني وافقت أول معالجتي لهذه الصناعة آخر أيامه، وأوان بتات عمره وانصرافه، خلا أنه ـ عفا الله عنه ـ ولما بجل المقدور به، قد كان أقبسني مصابيح من وصاياه فيها، ووطأ لي مراكب من دلائله اليها، وضرب لي صوى من هداياته نحوها، أفاد الله بها نفعا، وأوسع معها ارشادا . ثم ان الايام اثر مصابه وبعد ذهابه باكرتني صروفها، وشغلتني برقع خروقها، ومكابدة ضيقها، وسوق الأدب قد كسدت، وجمرة السلطان قد همدت، والعي أمضى من البيان، والاساءة أحمد من الاحسان، وأقلامنا يومئذ في عطلة، ومحابرنا في عقله، وكتبنا تحت موجدة، وحينئذ قلت :

قرعنا بالكتابة باب حظ	لندخله فزاد لنا انغلاقا
فلم تبلغ بلاغتنا مناها	ولامدّ المداد لنا ارتفاقا
ولاراحت تقرطس بالاماني	قراطيس أجدناها مساقا
وقلمت المطالب من حداها	لنا اقلامنا ساقا فساقا
فلاهطلت على الآداب مزن	ولابرحت اهلتها محاقا
.وعوضنا بماندريه . جهلا	لعل السوق مدركة نفاقا .

فمازلنا مع الخطوب مساجلين، ولصروف الايام مناضلين، فيوم لنا ويوم علينا، حتى اذا اراد الله أن يحيي لهذه الصناعة رسما، ويعيد لها دولة واسما، ويرفع سائر العلوم من التخوم الى النجوم، وفنون الآداب من التراب الى السحاب، طرف جفن السعد الباهت، وارتد نفس الجد الخافت، ولقي عثرة العلم مقيلها، ودولة الجهل مديلها، ونخوة الباطل مزيلها، ورسوم الغباوة محيلها، وقداح البلاغة مجيلها، ورفعت لي سجوف الأماني عن الملك اليماني غُرّة كندة التي تضحك عنها، وهضبة نجيب التي تأوي اليها، الأحوص معن بن محمد أيده الله كما ايد الحق، وصدقه وعده كما احيا الصدق، فوصلت به سببي، ولويت

بقوى أطنابه طنبي، ورأيت به للحلم جبلا موطودا، وللديانة ظلا ممدودا وللتقوى حبلا مشدودا، وللعلم بحرا طموحا، وللأدب روضاً مجودا مروحاً . ولم يزل منذ اعتصمت بحرمته، واعتزيت الى خدمته، يقبل عليّ في مجالسه المأنوسة باللحظ واللفظ، ويكسبني بمنازعة الأدب شرف المرتبة والحظ، فأتمرن على تثقيفه وتقويمه، وأتضمر عن رياضته وتعليمه، وتلزّني هيبة كماله وروعة جلاله الى شحذ سجاياي وجمع قواي، واجتناب الخطل في ايوانه، والزلل في ميدانه، فلا ترى شيئا أشبه به في التفضل وبي في التقبل من قول حبيب :

نرمي بأشباحنا الى ملك نأخذ من ماله ومن أدبه

والبلاغة وان كانت من فنون العلم أرق مااسترق، وألطف ماغرف، وأيسر مابه حاضر، وأقل ماامل ، وأوهن ماخزن، وأدنى ماالتقى، فله كلف بانتقادها شديد، وصوت في معرفة نقادها بعيد، وقد خلص بيمينه العالية جوهر الكلام من أخباثه، وبمر القول من انكاثه، في غير ماكتاب منتم الى البلاغة معلم في الكتابة، فجاء بالصواب حاسرا، وبيان الحقيقة سافرا، وفي هذا النقد سقط العشاء بمن سقط على السرّحان، وفيه أساء من أحسن بنفسه الظن في الاحسان .

ومن هذا الباب توجت الى صنعة هذا الكتاب ليرى ـ ايده الله ـ كيف نبت كلامي على سقيه . ومما ماأودع تربة قبولي من غرسه، فاني ضمنته في فنون من البلاغة وفصول من الكتابة سلطانيات واخوانيات . وكل ماأوردته مما ولدته، وما وضعته مما صنعته، لم اغله لغيري، ولاخنت فيه أمانة سواى . الا انني طرزته بأبواب من بيوت الشعر المحتوية على الحكم البوالغ، والجارية مجرى الامثال السوائر، لشعراء مجيدين وعلماء مفيدين، قد ركبوا من المعاني أوطاها مركبا، ووردوا للألفاظ اعذبها مشربا، وتخطوا في نظمهم الخشونة الى اللدونة والتكلف الى التلطف . وخاضوا جسوم الحكم الى الارواح، وخرجوا بحسن التخلص من الالتباس الى الايضاح، لئلا تباين طبقة منثورة طبقة منظومة، ولاتبعد مرتبة جامدة من مرتبة ذائبة، وليأتي في ازدواج الليل والنهار، وامتزاج الماء بالعقار .

* * *